# الصراع اللغوي في الجزائر وتأثيراته السلبية في تكوين الهوية الجزائرية

**الدكتورة فتيحة شفيري**

جامعة امحمد بوقرة، الجزائر

**الأربعاء ٩ شعبان ١٤٣٩هـ - الموافق ٢٥ نيسان ٢٠١٨م**

## الملخص

تسعى الدراسة لبيان صورة الصراع خلال فترة الاستمار الفرنسي، من خلال الاستراتيجية الثقافية التي اتبعتها هذه القوة الاحتلالية، فهو بناء متواصل للمدارس الفرنسية وتكوين نخبة من الجزائريين مدافعين عن الثقافة الفرنسية والهوية الفرنسية والانسلاخ بسهولة من الهوية الجزائرية، كما وضحت الباحثة دور القوة الثقافية المضادة التي أسستها مقاومة الأمير عبدالقادر التربوية وجهود جمعية العلماء المسلمين.

لا يمكن حل الصراع اللغوي في الجزائر دفعة واحدة أو بصفة عشوائية غير مخطط لها بإحكام، لذا اقترحت الباحثة جملة من الحلول ليخرج الجزائريون من دوامة هذا الصراع وتداعياته الخطيرة على الأجيال الصاعدة التي نأمل أن تحمل مشعل الحضارة والبناء لا معول التخلف والتهديم.

**مقدمة**

تُعد المحافظة على الهوية مكسباً حضارياً تسعى إليه الأمم الواعية، فتضييعها قصداً أو من غير قصد يعني الزوال الحتمي، وتعيش الدول المستضعفة في عصرنا هذا تهديداً صريحاً في هويتها، والسبب خضوعها المطلق لمركزية القوي الذي جعلها محصورة في دائرة التهميش والإقصاء، ما يعني أن مسألة القابلية للاستدمار ما تزال قائمة، فالتقبل المطلق لثقافة الآخر المركزي تهديد صريح لهوية هذه الشعوب، إذ لم يعد لها الخيار في أن ترفض ما تستقبله من ثقافة المركز الذي سعى لأن يوسع مفاهيم عديدة في مقدمتها الإحساس بالدونية، ويشهد التاريخ أن الأمم الإنسانية سعت لحماية هويتها حماية مستميتة، مؤكدة من خلال ذلك رفضها الانصهار في ثقافة المحتل الغريبة عنها، والجزائر واحدة من هذه الأمم التي قاومت عبر تاريخها كل القوى التي سعت لفرض مركزيتها الثقافية، بدءاً من الاحتلال الروماني وصولاً للاحتلال الفرنسي.

سعت فرنسا في احتلالها للجزائر لأن يصبح هذا البلد جزءاً منها فهو مكسب اقتصادي جد مهم لا يمكن إلا استنزاف خيراته الباطنية، ومن أجل أن تعمّر في هذه الأرض إلى أجل غير مسمى راحت تؤسس استراتيجية ثقافية محكمة قوامها إدخال الشعب الجزائري في صراع لغوي مستمر، فهي نشرت اللغة الفرنسية وغرست أهميتها في وعي الجزائريين، ومن جهة أخرى أضعفت مكانة اللغة العربية الفصحى وهمشت دورها الحضاري الذي عرفته في فترات تاريخية سابقة، ومن جهة ثالثة فتحت المجال واسعاً أمام اكتساح غير مشروط للهجات العامية.

وقد سعت فرنسا ومع خروجها القهري من الجزائر لمواصلة استراتيجيتها الثقافية المسيطرة، لتدعم وبقوة ما أُطلق عليه بالتيار التغريبي الفرانكفوني الذي ركز منذ الاستقلال إلى يومنا هذا على محاربة اللغة العربية لإدراكه أن هذه اللغة تهدد وجوده واستمراريته، لكن وإن كان التيار العروبي متأرجحاً في تموقعه ضمن الفضاء اللغوي العام في الجزائر، إلا أنه يواصل الجهود في إخراج الشعب الجزائري من دوامة الصراع اللغوي من خلال تفعيل وجود اللغة العربية وغرس الوعي بأهميتها وقيمتها الحضارية مع الانفتاح بوعي على اللغات الأجنبية وفي مقدمتها اللغة الفرنسية.

ويشتد الصراع اللغوي أكثر وتزداد حدته مع المطالبة بأحقية اللغة الأمازيغية في اعتبارها أساساً من أسس الهوية الجزائرية لينقسم المجتمع الجزائري إزاءها، فالبعض مؤيد لها ودافعهم إلى ذلك أنها لغة الأجداد وهي الجذور الأصلية للشعب الجزائري، والبعض الآخر رافض لتعلمها وحجته أنها لا تمثله ويكفيه ما يعانيه من اللاانتماء اللغوي ما بين العربية من جهة والفرنسية من جهة أخرى، وقد جعلنا هذا كله نطرح الإشكاليات التالية: **ما طبيعة الصراع اللغوي في الجزائر؟ وما دلالته؟ وما هي تبعاته؟**

سنركز في بحثنا **أولاً** على تبيين صورة هذا الصراع فترة الاستدمار الفرنسي، كاشفين من خلال ذلك الاستراتيجية الثقافية التي اتبعتها هذه القوة الاحتلالية، فهو بناء متواصل للمدارس الفرنسية وتكوين نخبة من الجزائريين مدافعين عن الثقافة الفرنسية والهوية الفرنسية والانسلاخ بسهولة من الهوية الجزائرية، كما سنبين دور القوة الثقافية المضادة التي أسستها مقاومة الأمير عبدالقادر التربوية وجهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بقيادة العلاّمة عبدالحميد بن باديس، فالأمير في سياسته الثقافية أدرك خطورة استراتيجية

الاستدمار الفرنسي الثقافية، إذ لم تمنعه مقاومته العسكرية من إعادة إحياء فضاءات علمية تعليمية كالكتاتيب والزوايا، فعلى الرغم من بساطة هذه الفضاءات فنتائجها كانت مثمرة؛ أهمها التفاف الجزائريين مرة أخرى حول هويتهم وتحديداً حول لغتهم العربية التي سعى المستدمر الفرنسي للقضاء عليها وفي الوقت ذاته القضاء على الدين الإسلامي الذي يُشكل عصب حياة الشعب الجزائري.

سنبين وبشكل مكثف جداً صورة القوة الثقافية الثانية المضادة المتمثلة في جمعية العلماء المسلمين، التي سعت لحماية هوية الشعب الجزائري والقضاء على روح الفتنة التي أرادت فرنسا إثارتها من خلال استثمارها في مسألة اللغة الأمازيغية، فكان رد العلامة عبدالحميد بن باديس قوياً في هذا الصدد حين دافع عن تلاحم الشعب الجزائري بأمازيغه وعربه، فالقضية بالنسبة إليه هي حماية الدين الإسلامي وحماية لغته.

وننتقل بعدها للتركيز على مرحلة ما بعد استقلال الجزائر بدءاً من المرحلة البومدينية إلى مرحلة الثمانينيات وصولاً إلى الألفية الجديدة، راصدين من خلال ذلك كله صورة الصراع اللغوي القائمة في الجزائر والتي كانت فرنسا وما تزال المحرك الأساس لهذا الصراع، كما سعينا لإبراز جهود علماء الجزائر ومفكريها الداعين إلى إخراج الجزائر من دوامة هذا الصراع اللغوي من خلال الالتفاف حول أسس الهوية الجزائرية والذي اختصرته الكاتبة والوزيرة الجزائرية السابقة زهور ونيسي في قولها أن كل الجزائريين أمازيغ عربهم الإسلام.

لا يمكن حل الصراع اللغوي في الجزائر دفعة واحدة أو بصفة عشوائية غير مخطط لها بإحكام، لذا اقترحنا جملة من الحلول التي رأيناها مناسبة ليخرج

الجزائريون من دوامة هذا الصراع وتداعياته الخطيرة على الأجيال الصاعدة التي نأمل أن تحمل مشعل الحضارة والبناء لا معول التخلف والتهديم، وختمنا بحثنا بجملة من النتائج تلخص تداعيات الصراع اللغوي في الجزائر.

**١- الصراع اللغوي في الجزائر فترة الاستدمار الفرنسي:**

مثلت الجزائر للاستدمار الفرنسي بوابة اقتصادية جد مهمة لما تتوفر عليه هذه الأرض من خيرات باطنية متنوعة، وللاستفادة من هذه الخيرات سعت حكومة الاستدمار إلى اتباع سياسة محكمة لتكون أهم استراتيجيتها القضاء على هوية الشعب الجزائري وإبادة أسسها ومن ذلك اللغة العربية الفصحى.

أدركت فرنسا تعلق الشعب الجزائري بلغته العربية التي كانت لها حظوة ومكانة في عهود سابقة، فقد كان للفتح الإسلامي أعظم الأثر في نشر اللغة العربية ليلتفّ حولها عموم الشعب، «وانتشار الإسلام دعا السكان إلى الاستعراب وإلى تعلم القرآن، ولما كان عهد حسان بن النعمان الغسّاني والي أفريقية من قبل عبدالملك بن مروان أصبحت العربية لغة البلاد الرسمية، كما انتدب موسى بن نصير عدداً كبيراً من الفقهاء والقراء للغرض نفسه»[١]، وما خطبة طارق بن زياد إلا دليل على نجاح سلسلة الفتوحات الإسلامية للمغرب العربي، ومنها الجزائر، وتمكن أهلها من هذه اللغة والغوص في جماليتها.

لقد عرفت اللغة العربية في الجزائر بهذا حضوراً متواصلاً لتحتضنه فضاءات تعليمية متنوعة **كالكتاتيب** التي سعت لغرس التواصل مع هذه اللغة من خلال تحفيظ القرآن الكريم للأطفال الذين تتراوح أعمارهم ما بين الخامسة والرابعة عشرة. «تعتبر الكتاتيب بمثابة مؤسسات التعليم الابتدائي في عصرنا

---

(١) حنا الفاخوري، تاريخ الأدب العربي في المغرب، المكتبة البوليسية لبنان، دار الأصالة الجزائر، ط١، ١٩٨٢، ص٣٦.

هذا تستقبل أطفالاً من مختلف الأعمار؛ منهم من يتعلم لاكتساب القراءة والكتابة وحفظ القرآن»[١]، ووجود مثل هذا الفضاء التعليمي قبل دخول الاستدمار الفرنسي للجزائر دليل تاريخي صريح على أن الجزائريين كانوا ملتفين بقوة حول لغتهم العربية.

ولم تكن هذه الكتاتيب الفضاء التعليمي الوحيد الذي سعى إلى نشر اللغة العربية والمحافظة عليها بل كان هناك ما يُسمى **بالزوايا** التي تخرج فيها علماء وفقهاء تركوا بصمة في تاريخ الجزائر الثقافي. «يبقى الذكر الطيب للدور التربوي الذي قامت به هذه المؤسسات والمتمثل في تخريج عدد من الفقهاء والمتصوفة»[٢]، لقد قامت هذه الفضاءات التعليمية بدورها التربوي على أكمل وجه، والدليل انتشارها الكبير في أغلب مدن الجزائر.

- **أسبابه ودوافعه:**

قام الاستدمار الفرنسي بدراسة دقيقة للوضع الثقافي المتقدم الذي عرفته البلاد، فأدرك أن الشعب الجزائري يُعنى بلغته العربية عناية كبيرة جداً، والدليل -كما ذكرناه سابقاً- انتشار الكتاتيب والزوايا، فقرر وفق استراتيجية محكمة القضاء على هذه اللغة لتحقيق هدف أسمى هو تنصل الشعب الجزائري من هويته، ليؤسس في المقابل مركزيته اللغوية على نطاق واسع يشمل كل مدن الجزائر وقراها «عمد الاستعمار الفرنسي إلى جعل اللغة الفرنسية لغة رسمية بالقضاء على اللغة العربية تمهيداً لطمس الهوية الجزائرية بجعل الجزائريين فرنسيين فأقصى اللغة العربية وأثبتت لغة قهراً وعدواناً»[٣]، فالاستدمار الفرنسي

---

(١) صحبي حسان، العقيدة التربوية الاستعمارية الفرنسية في الجزائر ١٨٣٠-١٩٦٢، منشورات أنوار المعرفة، ٢٠١٤، ص٢٢٣.

(٢) العقيدة التربوية الاستعمارية الفرنسية في الجزائر ١٨٣٠ إلى ١٩٦٢، ص٢٢٤.

(٣) نصيرة زيتوني، واقع اللغة العربية في الجزائر، مجلة جامعة النجاح، مج٢٧، ٢٠١٣، ص٢١٥٨.

الفرنسي كان بالدرجة الأولى استدماراً ثقافياً «وبين الاستعمار الفرنسي مثلاً والاستعمار الإنكليزي، فالأول يعمل على هدم البنيات اللغوية والثقافية التي كانت قائمة من قبل ليُحل محله بنيات أخرى لا علاقة لها في الغالب بلغة البلد وثقافته»[1]، وقد أكد هذا من قبل الإمام محمد البشير الإبراهيمي أحد أعمدة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين «وهو في هذا الوطن قد أدار قوانينه على نسخ الأحكام الإسلامية وحارب الإيمان بالإلحاد والفضائل بحماية الرذائل، والتعلم بإفشاء الأمية والبيان العربي بهذه البلبلة التي لا يستقيم معها تعبير ولا تفكير»[2]، وقد سعى الاستدمار الفرنسي لتحقيق ذلك منذ احتلاله الجزائر سنة ١٨٣٠ إلى مرحلة الاستقلال وصولاً إلى عصرنا هذا.

ولتحقيق هذا المشروع الثقافي راحت فرنسا تبني مدارسها لنشر لغتها وثقافتها بصورة إجبارية بين أوساط الشعب الجزائري، وقد خلق هذا صراعاً لغوياً بين العربية بمحاولة القضاء عليها والفرنسية بالسعي الحثيث والمتواصل لفرضها، فكانت النتيجة مثمرة للمستدمر الفرنسي؛ إنها تكوين ثلة من المثقفين الذين اكتسبوا اللغة الفرنسية اكتساباً وتضلعوا فيها أحسن من الفرنسيين أنفسهم، لكن بعضهم –رغم تضلعه في لغة الآخر الفرنسي– اعترف أنه يعيش صراعاً لغوياً، فهو ممزق بين حضارة لا تمت له بصلة حضارة غريبة عنه وحضارة يسعى الفرنسي للقضاء عليها تمثلها اللغة العربية أحسن تمثيل، ولنا في الشاعر والروائي مالك حداد خير دليل: «تقوم الفرنسية حاجزاً بيني وبين وطني بصورة

---

(١) أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي نشأته وتطوره وقضاياه، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ٢٠٠٧، ص١٣٥.

(٢) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم نجله أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط١، ١٩٩٧، ص٤٧.

أقوى وأشد من حاجز البحر المتوسط»[١]، ولم يرغب هذا المبدع البقاء طـــويلاً في حلقة الصراع اللغوي هذه ليُقرر وبعد استقلال الجزائر وضع قلمـــه تاركـــاً المجال كما قال للغة العربية لتستعيد مكانتها التي حاول المســـتدمر الفرنســـي طمسها قروناً.

وإن كان هدف بناء الاستدمار الفرنسي لمؤسساته التربوية هو تعليم اللغة الفرنسية للجزائريين وخلق صراع لغوي كما ذكرنا آنفاً، فله أيضاً هدف آخـــر وهو إقصاء مقصود للتاريخ الجزائري وتشويهه وبالتالي دفع الشعب للتنصـــل اختيارياً من هويته وروحه القومية. «كان طمس التاريخ ظاهرة ملازمة للفكـــر الاستعماري»[٢]، كما حاول المستدمر الفرنسي في المقابل تمجيد دوره الاحتلالي لهذا البلد ولغيره من البلدان التي سيطر عليها عسكرياً وثقافياً من خلال غرس أفكار مغلوطة واعتبارها حقائق تاريخية مسلماً بها كـــأن يعـــدّ احتلالـــه لهـــذه الشعوب حلاً لإخراجها من التخلف الذي تعيشه، والاعترافُ بإيجابية الاحتلال لم يكن رهين الماضي فقط بل تواصل في عصرنا هذا: «سنت الجمعية الوطنيـــة الفرنسية قانون ٢٣ فبراير ٢٠٠٥ تمجد فيه الاستعمار، وتقرر بمقتضاه وجوب "اعتراف المقررات المدرسية أساساً بالدور الإيجابي للوجود الفرنسي فـــي مـــا وراء البحار لا سيما في أفريقيا الشمالية»[٣]، ويظل هذا الاعتقاد لحد الآن محل

---

(١) حوار مع مالك حداد، أجراه أبو العيد دودو، مجلة البيان، الكويت، ع٣١٨، ينـــاير ١٩٩٧، ص٥٩.

(٢) إبراهيم سعدي، الثقافة والهوية والدولة، السؤال عن الهوية في التأسيس والنقد والمســـتقبل، منشورات ضفاف لبنان، منشورات الاختلاف، الجزائر، ٢٠١٦، ص١٣٣.

(٣) المرجع نفسه، ص١٣٤، ١٤٤.

رفض أغلب فئات الشعب الجزائري، فالتاريخ عندها مقدس مهما كان التأثير الثقافي كبيراً.

وتتوسع دائرة الصراع اللغوي أكثر في هذه الفترة بهدم المستدمر للمؤسسات التربوية من كتاتيب وزوايا «آلت حالة التربية والتعليم في عهد الاستعمار الفرنسي إلى حالة مزرية نتيجة للسياسة المجحفة القاهرة المتسلطة على مؤسسات التعليم العربي في الجزائر، استهدفت بالأساس الإنسان الجزائري وثقافته الوطنية والقومية»[1]، وهدم المستدمر لهذه المؤسسات التعليمية التي سعت لإلغاء الأمية وسط أبناء الشعب الجزائري يعني أيضاً القضاء على العقل المفكر والموجه؛ وهم العلماء والفقهاء الذين بنوا شخصية الشعب الجزائري وروحه القومية. «إن أوّل ما عهد عليه الاستعمار الفرنسي في الجزائر هو مطاردته للعلماء وتشريدهم ومحاصرة وغلق الكتاتيب والزوايا مع مصادرة أملاكها ومحاولة تحويلها لخدمة أغراضه الاستعمارية»[2]. وما من شك في أن تغييب دور العلماء والفقهاء ساعد الاستدمار الفرنسي على التواصل بشكل سريع مع الاستراتيجية الثقافية التي رسمها وخطط لها بإحكام كبير، إنه استنزاف العقول وخرابها، فقد عمّ الجهل وأسست الأمية تموقعها بصورة أكثر قوة، وهذا هو هدف المستدمر كما يشير إلى ذلك المفكر الجزائري مالك بن نبي؛ «فهو يريد تحطيم كل إرادة تدفع الإنسان المستعمَر إلى التقدم والحضارة»[3]، بل قام هذا المستدمر -كما أكدته الدراسات التاريخية لتلك الفترة- باعتبار هؤلاء العلماء عناصر خطرة تسعى لخلق الفوضى والاضطراب.

---

(١) العقيدة التربوية الاستعمارية الفرنسية في الجزائر ١٨٣٠- ١٩٦٢، ص٢٣٠.

(٢) المرجع نفسه، ١٨٣٠- ١٩٦٢، ص٢٣٠.

(٣) مالك بن نبي، في مهب المعركة، دار الفكر، سوريا، ط١١، ٢٠١٥، ص٤٥.

ولم يكتف الاستدمار الفرنسي بخلق اتهامات واهية لعلماء الجزائر، بل أصدر مرسوماً قضائياً يصنف تعليمهم للغة العربية من أبشع الجرائم، ليقوم بالقبض على من يدرسها منهم ويزجه في السجن «من سنة ١٩٣٣ اعتبرت اللغة العربية رسمياً لغة أجنبية في الجزائر، وأن المساجد محرّمة على العلماء الأحرار، ومن يومئذ أصبح تعليم اللغة العربية في عداد الجرائم يُحاكم عليها قانونياً ويقضي القاضي بتجريم مقترفيها»[١]، ولم تمنع مثل هذه الممارسات القمعية الثقافية من أن تُفعّل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وجودها من خلال حماية اللغة العربية من الاندثار وغرس الارتباط النفسي بها عند عموم الشعب الجزائري.

ونجاح المستدمر الفرنسي في استراتيجيته اللغوية إلى حد كبير، لم يمنع الشعب الجزائري حسب شهادة الإمام محمد البشير الإبراهيمي من أن يظل متيقظاً لتعلم لغته العربية والاستماتة في الدفاع عنها لتصبح بالنسبة إليه مطلباً لا غنى عنه مطلقاً متحدياً بذلك قوة المنع القوية التي مارسها هذا المستدمر تجاه لغته ودينه «ما نراه من حرص متأصل في هذه الأمة على تعلم العربية وما نشهده من مطالبة جماعية بحرية تعلمها، وما نشاهده من قلق واضطراب في أوساط الأمة لموقف الحكومة المخجل من اللغة العربية وما نراه من سخط عميق على القرارات والقوانين التي تعرقل تعليمها؛ وذلك كله لأنها مفتاح الدين أو جزء من الدين»[٢]، وهذا الالتفاف الشعبي كان مهماً جداً في تلك المرحلة الحساسة من تاريخ الجزائر، فإبادة الهوية يعني إبادة تاريخ ووجود.

---

(١) علي محمد محمد الصلابي، كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي وسيرة الزعيم عبدالحميد بن باديس، دار العزة والكرامة، لبنان، ط١، ٢٠١٦، ص٢٣٣.

(٢) آثار البشير الإبراهيمي، ص٤٩.

ولم تدخر القوة الاستدمارية جهداً في توسيع هوة الصراع اللغوي في الجزائر فقامت بتشجيع غير مشروط للهجات المحلية، إنها الرغبة في زعزعة صرح اللغة العربية لتصبح لغة ميتة من جهة، ومن جهة أخرى لتتمكن من التغلغل الكبير في المجتمع الجزائري من أجل إنجاح مشروعها الثقافي في هذا البلد. «وقد تمّ تشجيع اللهجات العامية لتصل السلطات الاستعمارية إلى أكبر عدد من الناس طالما أن ذلك يُحقق نتائج للسياسات العنصرية المعتمدة في مجال التربية والتعليم وإلغاء ثقافة الآخر وتاريخه وصورته الحضارية المرسومة في أذهان أبنائه»[1]، وظلت فرنسا طيلة احتلالها للجزائر تشجع العامية الجزائرية وتدعم انتشارها لتحقق من وراء ذلك مكاسب ثقافية كان لها وجود فعلي في أرض الواقع فترة الاحتلال وما بعد الاستقلال.

ولم تقف جهود القوة الاستدمارية الفرنسية عند تشجيع اللهجات العامية فقط، بل سعت لخلق صراع ثقافي بين اللغة العربية واللغة الأمازيغية، وهي بهذا لم تكن راغبة في طرف معين على حساب طرف آخر، بل غايتها توسيع مركزيتها الثقافية في هذا البلد وإبادة اللغة العربية على وجه الخصوص، بل يمكن تقديم قراءة ثانية لهذه الاستراتيجية الاستدمارية؛ وهي خلق فتنة داخل المجتمع الجزائري الواحد ومحاولة تفتيت وحدته القومية. «اتخذ الاستعمار لذلك أساليب شتى أبرزها محاولة التفرقة بين العرب والأمازيغ أولاً ومحاولة التشكيك في الماضي والطعن فيه»[2]، وظلت هذه الاستراتيجية اللغوية الفرنسية قائمة حتى بعد حصول الجزائر على سيادتها على الرغم من محاولة رؤسائها المتتالين إطفاء هذه الفتنة من خلال اعتبار اللغة الأمازيغية جزءاً لا يتجزأ من الهوية

(١) العقيدة التربوية الاستعمارية الفرنسية، ص١١٢.

(٢) محمد الميلي، ابن باديس وعروبة الجزائر، دار الكتاب العربي، الجزائر، ٢٠١١، ص٤٦.

الجزائرية، وهذا ما أكده الرئيس الراحل هواري بومدين حسب محيي الدين عميمور المستشار الإعلامي للرئيس الراحل: «تحدث الدكتور محيي الدين عميمور عن اهتمام الرئيس بالوحدة الوطنية واعتبارها قاسماً مشتركاً بين مختلف الأطياف في المجتمع، وأن الأمازيغية ينتمي إليها الجميع كجنس ولا يمكن التنصل منها، وأن من يريد صنع الفرق فإنه يقود إلى التشرذم وما لا تحمد عقباه»[1]، وهنا نتساءل: على الرغم من هذه الجهود الفعّالة في حماية الوحدة الوطنية وعدم السماح بخلق فتنة لغوية داخل المجتمع الجزائري، هل ستظل مثل هذه الجهود واهنة التفعيل في الواقع المعيش للجزائريين؟

- **دور جمعية العلماء في حل الصراع اللغوي -جهود العلامة ابن باديس أنموذجاً-**

لا يمكننا في معرض حديثنا عن جهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في محاربة الصراع اللغوي في الجزائر أن نتجاوز دور مقاومة الأمير عبدالقادر التربوية التي آزرت مقاومته العسكرية، فهذا الرجل الذي تربى في بيت علم لم يكن غريباً عنه أن يدافع عن هوية الشعب الجزائري وفي مقدمتها اللغة في ظل المركزية الثقافية الفرنسية، فاهتم بإعادة إحياء فضاءات علمية كانت مؤسسة كما ذكرنا سابقاً في عهد الفاتحين المسلمين للجزائر، إنها الكتاتيب والزوايا القرآنية «تكثف ظهورها خلال تلك الفترة كأحد الأساليب لمواجهة سياسات التنصير والتمسيح والفرنسة ولأجل حماية الشخصية العربية الإسلامية»[2]، وعلى الرغم من بساطة هذه الفضاءات إلا أنها سعت للقيام

---

(١) أم السعد مكي، الرئيس هواري بومدين ألقى ٤٠٠ خطاب لترسيخ الوحدة الوطنية، الطبعة التاسعة للملتقى الوطني حول الراحل هواري بومدين، قالمة، الجزائر، جريدة الخبر الجزائرية، ع٨٧٣٥، السبت ٣٠ ديسمبر ٢٠١٧.

(٢) العقيدة التربوية الاستعمارية الفرنسية في الجزائر١٨٣٠، ١٩٩٢، ص٣٣٣.

بدورها في تنوير عقل الشعب الجزائري والأخذ بيده لإخراجه من دوامة الأمية التي حاول المستدمر إقحامه فيها. إن مقاومة الأمير الثقافية هذه هي قوة ثقافية أولى ستعقبها قوى ثقافية أخرى مضادة وفي مقدمتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بقيادة العلامة عبدالحميد بن باديس.

كان لزاماً أن تتأسس مقاومة ثقافية أخرى تواجه بالقوة ذاتها المسخ الثقافي الفرنسي والذي شكّل تهديداً صريحاً للشخصية الجزائرية ومقوماتها الحضارية، فجاءت جمعية العلماء المسلمين –حسب الإمام محمد البشير الإبراهيمي– لتحمي هذه المقومات وتصونها. «لبثت عوامل الاستعمار تهدم من هيكل الإسلام ولا تبني إلى أن تكونت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تكوناً طبيعياً كأنه نتيجة لتلك الحالة»[1]، فانسلاخ الشعب الجزائري من هويته ومن أساس مهم هو اللغة أمر رفضته بشكل قطعي جمعية العلماء المسلمين وعلماؤها وفي مقدمتهم العلاّمة عبدالحميد بن باديس «وكان عمل الرجل من أجل المحافظة على الشخصية القومية من أهداف حركته التربوية، ذلك لأنه لا يمكن للمجتمع أن يحافظ على بقائه الروحي إلا عن طريق المحافظة على مقوماته وتراثه الثقافي»[2]، إنه الوعي الكامل بقيمة الشخصية الجزائرية وتكاملها لتحقيق الريادة الحضارية المنشودة.

وسعت جمعية العلماء المسلمين لتأكيد مطالب الشعب الشرعية في أكثر من محاولة تحاور بينها وبين الحكومة الفرنسية التي ظلت دائماً رافضة هذه المطالب ضاربة بها عرض الحائط مؤكدة بذلك رغبتها في تطبيق الاستراتيجية

---

(١) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ص٤٧.

(٢) محمد عجوط، فلسفة ابن باديس التربوية بين الخصوصية الثقافية وعالمية القيم الإنسانية، مجلة الحكمة، ع١٩، مؤسسة كنوز الحكمة، الجزائر، ٢٠١٣، ص١٤.

التي سطرتها. «في شهر أغسطس من سنة ١٩٤٤ قدمت الجمعية مطالبها بصورة أوضح وأصرح من جميع ما تقدّمها في كراسة مفصلة تشتمل على مطالب الأمة في التعليم العربي وفي المساجد وأوقافها وفي القضاء الإسلامي وإصلاحه، وقد لقيت تلك المطالب ما لقيه قبلها من سكوت وإهمال»[١]، لقد أخذت الجمعية على عاتقها حماية ما يجب حمايته من أسس الهوية الجزائرية في حرب ثقافية مضادة تأكدت في وعي أعلامها الذين آمنوا بضرورة هذه الحرب والاستمرار فيها ما ظل الاستدمار الفرنسي فارضاً وجوده الثقافي في الجزائر.

لقد أيقن العلاّمة ابن باديس خطورة المشروع الثقافي الفرنسي الساعي لطمس الهوية الجزائرية «إننا نفرق جيداً بين الروح الإنسانية والروح الاستعمارية في كل أمة، فنحن بقدر ما نكره هذه ونقاومها نوالي تلك ونؤيدها، لأننا نتيقن أن كل بلاء العالم هو من هذه، فلتسقط الروح الاستعمارية ولتندحر ولترتفع الروح الإنسانية ولتنتشر»[٢]، ولحماية الأجيال من سرطان الاستدمار الفرنسي وسديمه راحت الجمعية تتواصل مع البلدان المجاورة كتونس ليلتحق بفضاءاتها التعليمية -وخصوصاً جامع الزيتونة- لفيف من الطلبة تشبعوا من هذا الفضاء التعليمي ديناً ولغة، هو التواصل الثقافي نفسه الذي تأسس مع دول المشرق وفي مقدمتها مصر. «نجحت الخطة الباديسية في إعداد الجيل الذي أحيا الوطن الجزائري في نفوس أبنائه ومهّد لجيل آت ليسترجع هذا الوطن بالثورة من قبضة الاستعمار، وبذلك أصبحت العربية والعروبة والقومية على يد الحركة الباديسية طوق نجاة الجزائر من المسخ الحضاري»[٣]، وكانت نتيجة هذا

(١) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ص٤٧.

(٢) عبدالحميد بن باديس، جريدة الشهاب ٥ جانفي ١٩٣٨، نقلاً عن كتاب محمد الميلي، ابن باديس وعروبة الجزائر، ص٨٣.

(٣) كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، ص٥٥٨، ٥٥٩.

الاحتكاك العلمي والمعرفي تأهب هؤلاء الطلبة للدفاع عن هوية بلدهم تأريخاً وإبداعاً، فكان منهم أحمد رضا حوحو وأبو القاسم سعد الله ومحمد العيد آل خليفة وحمود رمضان وأبو القاسم خمار وغيرهم.

وسعي العلامة ابن باديس لتأسيس المدارس العربية، لا يعني أنه دعا إلى ثقافة منغلقة على ذاتها، بل كان لرسالته التعليمية جانب آخر هو الانفتاح على ثقافة الآخر وهي الثقافة الفرنسية، فشجع طلاب العلم في هذه المدارس لاكتساب ناصية اللغة الفرنسية التي لها الحق في الوجود. «لو حرمنا من تعلم اللغة الفرنسية التي هي سبيلنا إلى آداب الغرب وعلومه وفنونه وفهمه من جميع جهاته كما حرمنا من حرية تعلم لغتنا لوقفنا إزاء ذلك الحرمان -لو كان- كوقوفنا إزاء هذا الحرمان»[1]، إنه الوعي إذن ببناء متكامل للشخصية الجزائرية؛ فهو **أولاً** المحافظة على هوية الشعب الجزائري ومحاربة المشروع اللغوي الاستدماري، **وثانياً** التواصل حضارياً مع ثقافة الآخر الفرنسي ومع ما يمثل هذه الثقافة من لغة وعلوم وفنون، لقد أظهر العلامة ابن باديس بسلوكه الثقافي المنفتح هذا أن الاستدمار الفرنسي استدمار هيمنة وإلغاء لمن يخالفه ثقافة وتفكيراً، وهذه هي طبيعة المحتل عامة «فالكولونيالية هي شكل خاص من أشكال الهيمنة»[2]، إنها الهيمنة التي اتخذت شكل الاحتقار لكل ما يمثل هوية الشعب المحتل الأعزل.

ولم تكن المدارس العربية وحدها من سعت للمحافظة على هوية الشعب الجزائري فترة الاستدمار الفرنسي، بل كان إلى جانبها الصحف المتعددة التي

---

(١) عبدالحميد بن باديس، جريدة البصائر، ع١٣٦، ٢١ أكتوبر ١٩٣٨، نقلاً عن كتاب محمد الميلي، ابن باديس وعروبة الجزائر، ص٨٢.

(٢) تييري هنتش، الشرق الخيالي ورؤية الآخر، ترجمة مي عبدالكريم محمود، دار مدى للثقافة والنشر، سوريا، ط١، ٢٠٠٦، ص٢٥٩.

أسستها جمعية العلماء المسلمين، وقد كان هذا الفضاء الإعلامي منبراً للدفاع عن اللغة العربية من جهة كما عكست من جهة أخرى قيمة ووعي القوة الثقافية المضادة التي مثلتها الجمعية رئيساً وأعضاء، فسيكون للكلمة المكتوبة حسب هؤلاء وقع كبير في نفوس الجزائريين. «إن الصحف الفرنسية تعد من العوامل التي فتحت أعين الجزائريين ونبهتهم إلى خطورة هذا السلاح، وأثارت في نفوسهم التساؤل عن الدور الفعال الذي يمكن أن تقوم به في مجال الإعلام والتوعية»[1]، وكما حاربت فرنسا المدارس العربية وسعت لغلقها، فقد حاربت أيضاً هذه الصحف العربية محاربة شديدة خوفاً منها في نهضة الشعب الجزائري وخروجه من سبات لغوي مخطط له بإحكام «ولكن هذه الصحافة واجهتها السلطة الاستعمارية بمعاملة قاسية وجابهتها بوسائل قمعية شديدة قلما رأينا لها مثيلاً غير الجزائر وهو ما طبع تاريخ هذه الصحافة بطابع الصراع والمقاومة والنضال»[2]، وتعددت صحف جمعية العلماء المسلمين ومن أهمها "البصائر" لتكون الغاية واحدة مناهضة المشروع اللغوي الاستدماري بالكلمة.

كما تفطن العلامة لاستراتيجية الاستدمار الفرنسي في السعي المتواصل لنشر مركزيته الثقافية من خلال نشره وبصورة تسلطية لغته الفرنسية للقضاء على اللغة العربية، فقد حدس الصورة الأخرى لهذه الاستراتيجية، إنها خلق صراع لغوي عربي أمازيغي، وتمثل العلّامة لهذه الصورة يعني إدراكه لخطورة الصراع اللغوي القائم وتأثيراته السلبية جداً في هوية الشعب الجزائري وروحه القومية الواحدة. «إن أبناء يعرب وأبناء مازيغ قد جمع بينهم الإسلام منذ بضعة

---

(١) محمد ناصر، الصحف العربية الجزائرية، من ١٨٤٧ إلى ١٩٥٤، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط٣، ٢٠٠٧، ص٢٨.

(٢) المرجع نفسه، ص٣٠.

عشر قرناً ثم دأبت تلك القرون تمزج ما بينهم في السراء والضراء، وقد كتب أبناء يعرب وأبناء مازيغ آيات اتحادهم على صفحات هذه القرون بما أراقوا من دمائهم في ميادين الشرف لإعادة كلمة الله»[1]، ولا يعني تركيز جمعية العلماء المسلمين على اللغة العربية إهمالاً أو تجاوزاً للجذور الأمازيغية، وإنما هو وعي بأن المستهدف من استراتيجية المستدمر اللغوية هو زعزعة صرح الدين الإسلامي الثابتة جذوره بقوة في أرض الجزائر.

**٢- الصراع اللغوي في الجزائر فترة ما بعد الاستقلال إلى الألفية الجديدة:**

ترى الكتابات الثقافية أن الشعوب المغلوبة تبقى راضخة لمحتلها السابق، مثل هذا الطرح نجده عند المفكر الجزائري مالك بن نبي الذي قال: «إن الاستعمار لا يستطيع فعلاً أن يترك بلداً كان يستعمره ولا أن يغادره هكذا وبكل بساطة مخلياً وراءه المكان للاستقلال الجديد»[2]، والملاحظ أن المستدمر بعد انسحابه الاضطراري من تلك البلدان يظهر احتراماً حضارياً لها لكنه في الخفاء يعلن استمرار سيطرته عليها ثقافياً واقتصادياً، وهذا ما كان عليه الوضع في الجزائر غداة الاستقلال، فقد سعت حكومة الرئيس الراحل هواري بومدين لتحقيق الاستقلال الاقتصادي عن فرنسا مثل تأميم المحروقات على سبيل المثال إلا أن النخبة المثقفة المفرنسة كان لها التأثير الثقافي الكبير على الرغم من المحاولات الجادة للتيار العروبي بقيادة المفكر الجزائري مولود قاسم نايت بلقاسم «كانت للرجل قرارات جريئة وشجاعة، فأول قرار اتخذه نايت بلقاسم من خلال تعيينه وزيراً هو أن لا يوقع أية وثيقة ترد إليه بالفرنسية، والقرار الثاني

---

(١) عبدالحميد بن باديس، جريدة الشهاب، ٥ جانفي ١٩٣٨، نقلاً عن كتاب محمد الميلي، ابن باديس وعروبة الجزائر، ص٨٣.

(٢) مالك بن نبي، من أجل التغيير، دار الفكر العربي، سوريا، ط٩، ٢٠١٥، ص٣٦.

أن لا يرد ولا يقرأ أي بريد يصل إليه مكتوباً باللغة الأجنبية مهما كان مصـــدر الرسالة، ولم يتزعزع أو يتنازل رغم تدخل الرئيس بومدين»[1]، وتظل جهـــود الرجل محمودة في محاولة التغلب على قوة التيار الفرانكفوني.

وإذا وجدت أجيال الاستقلال نفسها تتصارع بين لغتين: لغة معترف بهـــا رسمياً وهي اللغة العربية ولغة فرضت نفسها فرضاً وهي اللغة الفرنسية، فهناك من تمكن وبجدارة من تحقيق توازن بين اللغتين بعد التمكن منهما تمكناً كبيراً، وهناك من مال لإحداهما فهمش الأخرى، ومثل هذه الصورة الأخيرة ولدت مـــا يسمى بالصراع الفرانكفوني العروبي في المنظومة التربوية الجزائرية، والدليل أن حكومة الثمانينيات سعت لتوسيع مساحة اللغة العربية بإنشاء ما أطلق عليه حينها **بالمدرسة الأساسية**، فكان نتاج هذه المدرسة جيلاً معرباً بامتياز.

واستمر قيام هذه المدرسة إلى غاية نهاية التسعينيات، ولا يعني هـــذا أن التيار الفرانكفوني ترك الساحة فارغة للتيار العروبي بل كان في صراع طويل معه، والنتيجة كانت تغيير تسمية المدرسة الأساسية **بالمدرسة الابتدائية** بل وفرنسة مواد تعليمية في مقدمتها الرياضيات التي أصبحت ومع بداية التسعينيات تكتب معادلاتها من اليسار إلى اليمين، إلى جانب استبدال الرموز الرياضية العربيـــة برموز لاتينية، وجواب التيار الفرانكفوني أن التجديد أمر حتمي فرضته الثورة التكنلوجية التي تحتاج للغة الفرنسية أكثر منها للغة العربيـــة التـــي لا يمكنهـــا مجاراة هذه الثورة وسيرورتها.

ولا يمكننا بهذا تجاوز انعكاس هذا التيار في السلوك الثقافي الجزائـــري، ففئات من المجتمع ترى في الفرنسية لغة تقدم وحضارة لا يمكن للغة العربيـــة

(١) الطيب بن إبراهيم، مولود قاسم عرّاب التعريـــب فـــي الجزائـــر، جريـــدة أخبـــار اليـــوم الجزائرية، الثلاثاء ٢٩ أوت ٢٠١٧.

حسبهم أن تحقق ذلك لا على المدى القريب ولا المدى البعيد، وما دعم هذا السلوك هو استعمال الإدارات الكاسح للغة الفرنسية. «أما على مستوى المؤسسات الرسمية سواء كانت اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية أو ثقافية فإننا نلاحظ أن اللغة السائدة هي الفرنسية فهي في نظرهم لغة الحداثة والتطور»[1]، هذا يعني أن المستدمر الفرنسي الذي سعى لتحقيق مركزية ثقافية فترة احتلاله للجزائر قد نجح في استراتيجيته تلك؛ والسبب أنه طور أكثر الشعور بالدونية للشعب الذي احتله لتكون النتيجة احتقار هذا الشعب لكل ما يمت لهويته بصلة ومنها اللغة العربية. «إن أزمتنا اللغوية الحالية لا تعود إلى اللغة العربية باعتبارها نظاماً من الإشارات بقدر ما تعود إلى إشكالية التعامل معها من قبل أبنائها الذين يحاولون إلقاء المسؤولية عليها وإعفاء أنفسهم من هذه الأزمة التي نحياها يومياً»[2]، وتجدر الإشارة أن وضعية اللغة العربية في الجزائر وحالة الصراع اللغوي القائم فيها ليست مرتبطة بهذا البلد فقط، بل هو قائم في كل البلدان العربية خاصة في عصرنا هذا، ليبقى الحل حسب المهتمين بالشأن اللغوي أن يدافع مستعملو اللغة العربية عنها. «تسترد اللغة العربية عزتها حين يؤمن العرب بهويتهم اللغوية والحضارية ويدافعون عنها ويعملون على ترسيخها، أي حين تعود العروبية إيديولوجية راسخة تعتنقها الأمة بصدق»[3]، فاللغة وعي بالانتماء.

---

(١) عز الدين صحراوي، اللغة العربية في الجزائر، التاريخ والهوية، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة بسكرة، الجزائر، ع٥، جوان ٢٠٠٩، ص٢١.

(٢) اللغة العربية في الجزائر، التاريخ والهوية، ص٢٥.

(٣) مصطفى علي جوزو، لغتنا العربية بين الهوية القومية والتنكر لها، مجلة العربي، الكويت، ع٧٠٩، ديسمبر ٢٠١٧، ص١٠٧.

كما لا يمكن إنكار نجاح المشروع الثقافي الفرنسي الكبير أيضاً في الجامعات الجزائرية وخصوصاً في التخصصات العلمية كالطب والصيدلة، فالأساتذة الجزائريون منذ الاستقلال إلى عصر الألفية الجديدة ينتظمون في تقديم دروسهم للطلبة بهذه اللغة مما سهل من جهة أخرى توسيع رقعة الصراع اللغوي القائم بينها وبين اللغة العربية. «ويرجع تراجع اللغة العربية الفصحى رغم سياسة التعريب التي تتبناها الدولة الجزائرية منذ الاستقلال والتي تهدف إلى استعمال العربية وتعميمها في الميدان التعليمي إلى أن أغلب الفروع العلمية والتقنية في الجزائر تُدرس باللغة الفرنسية»[1]، وقد وجد الكثير من الطلبة وهم أجيال الثمانينيات والتسعينيات وصولاً لجيل الألفية الجديدة أنفسهم في اغتراب لغوي عند التحاقهم بمثل هذه التخصصات العلمية بسبب ضعف امتلاكهم للغة الفرنسية وميلهم إما للغة العربية أو للعامية، فلم يتمكنوا بذلك من تقديم تحصيل علمي جيد لتكون النتيجة تغيير البعض منهم للتخصص أو ترك الجامعة بصورة نهائية.

وإذا ركزنا على حالة أجيال الألفية الجديدة فهي تعيش أيضاً دوامة الصراع اللغوي، فالمتتبع لوضعية هذه الأجيال الثقافية يجدها غير متمكنة من اللغة العربية، والدليل النتائج الكارثية التي تتحصل عليها في الامتحانات التربوية الرسمية، وقد استغل التيار التغريبي هذا الوضع لتأكيد أن من وراء هذه النتائج محاولة تعميم اللغة العربية فـ«جاءت الدعوة إلى إبعادها عن تدريس المواد العلمية وترشيح اللغة الفرنسية لتحل محلها»[2]، ولكن القائمين على الشأن

---

(١) نصيرة زيتوني، واقع اللغة العربية في الجزائر، ص٢١٦٣.

(٢) عبدالقادر فضيل، المدرسة في الجزائر، حقائق وإشكالات، دار جسور للنشر والتوزيع، ط٢، ٢٠١٣، ص٣٦٨.

التربوي في الجزائر والداعين إلى تفعيل إصلاح هذا القطاع الحساس، أشـــادوا أيضاً بالنتائج الكارثية المتحصل عليها في اللغة الفرنسية، وعلى الرغم من ذلك لم يحتج التيار التغريبي ولم ينبس ببنت شفة، «والغريب في الأمر أن الموقف من اللغة الفرنسية لم يبن على نتائج التحصيل في هذه اللغة على الرغم من أنها نتائج أضعف من نتائج اللغة العربية بكثير، فكأنها أمر مقبول، فكيف تدل علامة ٩ أو ١٠ في اللغة العربية على ضعف النتائج، وعلامة ٥ في الفرنسية لا تدل على ذلك! إنها مفارقة عجيبة»[١]، وهذا التمايز في التقييم ما زال قائمـــاً لحـــد الساعة.

ونجد تبعات هذه النتائج كذلك في المستوى الجامعي المتدني هو الآخـــر، ولا يعني هذا أن هذه الأجيال في المقابل متمكنة من اللغة الأجنبية وفي مقدمتها اللغة الفرنسية على الرغم من وجود نسبة لا بأس بها قادرة على التواصل بهذه اللغة والإبداع فيها أيضاً، فعدم الميل لأي كفة لغوية جعل هذه الأجيال تجد حلاً سهلاً يعكس ثقافة التساهل التي تؤمن بها وهو التواصل بالعامية شـــفاهة فـــي الأقسام التربوية والفضاءات الجامعية، ولا بد أن نقف عنـــد مشـــروع ســـعت الحكومة إلى تطبيقه في المنظومة التربوية الجزائرية يتضمن تقديم الـــدروس بالعامية، وحجتها في ذلك الصعوبات التي يعرفها التلاميذ خاصة فـــي المـــواد العلمية والتقنية، ولكن هذا المشروع عرف إجهاضاً في مهده؛ والسبب رفـــض أغلبية الشعب الجزائري تعميم العامية في هذه الفضـــاءات التربويـــة لوعيـــه بخطورة توسع الصراع اللغوي الذي تعيشه الأجيال الصاعدة.

---

(١) المدرسة في الجزائر، ص٣٦٨، ٣٨٧.

والمتتبع للشأن اللغوي في الجزائر يتساءل ما هو دور جمعية العلماء الجزائريين؟ ولم لا تقوم بدورها المنوط بها في حماية هوية الأجيال الصاعدة كما فعلت قبلاً في عهد الاستدمار الفرنسي؟! والإجابة عن هذه التساؤلات نرصدها من خلال الواقع الثقافي الذي عاشه الفرد الجزائري منذ الاستقلال إلى الألفية الجديدة، فهذا الواقع سعى لتجميد جهود الجمعية، والمتمثل خاصة في التيار الفرنكفوني التغريبي المسيطر على أجهزة الدولة وإداراتها، وقد وضّح ذلك الأستاذ عبدالرزاق قسوم الرئيس الحالي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين «غير أن حملة المشروع التغريبي بما لديهم من مكر ودهاء أدركوا خطورة شعبية الجمعية فعاملوها معاملة الأحزاب السياسية ومنعوها من النشاط الثقافي والديني، هذا الغياب الذي مكّن المشروع التغريبي العلماني من بسط نفوذه وهو ما نعاني تبعاته إلى اليوم على أكثر من صعيد في عملية التنمية المعرفية والإعلامية والاجتماعية»[1]، والدليل على تجميد دور الجمعية عدم إشراكها في بناء منظومة تربوية تحمي هوية الأجيال الصاعدة، فكثيرة تلك الأفكار بل والمعتقدات التغريبية التي تعج بها الكتب المدرسية الحالية، فعلى الجمعية إذن دق ناقوس الخطر لحماية ما يجب حمايته.

وتشكّل صورة الجمعية هذه لا يعني أن جهودها مغيّبة، بل إنها واصلت نضالها منذ استقلال الجزائر وما زالت كذلك إلى عصرنا هذا، والدليل أن الإمام البشير الإبراهيمي حذر من خطورة المساس بالهوية الجزائرية وتبعات ذلك على

---

(١) الشيخ عبدالرزاق قسوم، جمعية العلماء لا تتخندق في أي خندق إيديولوجي ضيق وهي تمد يدها إلى كل جزائري وطني مخلص، حوار أجراه كمال أبو سنة، مجلة التبيان، ع٤، ديسمبر ٢٠١٧، الجزائر، ص١٣.

الفرد والمجتمع. «واللافت للأنظار أن البيان الشجاع الذي أصدره الشيخ محمد البشير الإبراهيمي عام ونبه فيه إلى أن البلاد تسير نحو مخاطر، وإن لم يتدارك أبناؤها لها يمكن أن تعود بالوبال على الأمة في جميع ميادين حياتها وهو ما كلف عالمنا الجليل وضعه رهن الإقامة الجبرية إلى أن التحق بالرفيق الأعلى»[1]، بل إن التيار العروبي الذي ترعاه الجمعية ما زال يرفع لواء التحدي عالياً على الرغم من كل العراقيل التي سعى ويسعى التيار الفرانكفوني لخلقها. «لا تزال الجمعية تقاوم وتقوم بدورها، وهي صامدة ولم تضمحل بل إنها تزداد رسوخاً وإثباتاً وإشعاعاً بالرغم من أننا نؤمن بأنها لم ترق إلى ما يؤمل لها»[2]، فالندوات التحسيسية التي تقوم بها الجمعية خير دليل على مواكبتها للتغيرات الثقافية التي تهدد هوية الشعب الجزائري لتهدف من خلالها إلى غرس اليقظة والحذر في عموم هذا الشعب خاصة في أجيال يعوّل عليها كثيراً.

كما أن انتشار المدارس القرآنية في مختلف ولايات الوطن صورة أخرى من صور تحدي الشعب الجزائري للثقافة التغريبية التي يؤسسها التيار الفرنكفوني، فأغلبية الأولياء اليوم في حالة حماس كبيرة لإلحاق أبنائهم بهذا الفضاء التعليمي ما قبل المدرسي الذي يسمح لهم بأن يرتبطوا بلغتهم العربية ودينهم الإسلامي، بل وتتسع وظيفة هذه المدارس لتهتم بتوسيع مدارك الطفل في علوم أخرى كالرياضيات مثلاً، والتفاف الشعب الجزائري حول هذه المدارس يعكس رغبته في حماية هويته والمحافظة عليها، إنه إذن استمرار لصورة هذا الشعب في علاقته بالمدارس العربية التي أسستها جمعية العلماء المسلمين فترة الاستدمار الفرنسي.

---

(١) جمعية العلماء لا تتخندق في أي خندق إيديولوجي، ص١٤.

(٢) السابق نفسه.

كما تسعى أسر جزائرية –وهذا ما لاحظناه– لتشجيع أبنائها في تعلم لغات أجنبية منها اللغة الفرنسية مع تحقيق توازن معرفي بين هذه اللغة واللغة العربية، هذا يعني تبني هذه الأسر لما آمن به العلامة ابن باديس من أن التمسك باللغة العربية وحمايتها لا يعني رفض لغات أخرى بل هو الانفتاح عليها، فهذه الحماية للغة العربية والانفتاح على غيرها تعني تأسيس تكامل للشخصية وتحقيقاً لتوازنها وهذا هو المطلوب وما يجب أن يكون قائماً في المجتمع كله وليس مقتصراً على أسر دون غيرها.

وتظل مسألة الهوية مسألة شائكة في الجزائر، فإذا حصرنا من قبل وجود صراع لغوي بين حضور اللغة العربية واللغة الفرنسية، فهناك حضور آخر يُطرح في ساحة هذا الصراع وهو اللغة الأمازيغية، فالعلامة عبدالحميد بن باديس –وكما ذكرنا سابقاً– سعى لحماية هذه اللغة من خلال الاعتراف بوجودها باعتبارها جذور الشعب الجزائري، وفعله هذا ساعد على إطفاء نار الفتنة التي رغب المستدمر الفرنسي في إشعالها من أجل تحقيق استراتيجيته اللغوية والاقتصادية في الوقت ذاته.

وتعود هذه اللغة لتبحث عن مكاسبها الثقافية منذ الاستقلال إلى يومنا هذا، لتعرف مواقف متباينة لها في الحكومة الجزائرية، فمن رجالاتها من أراد تجاوز حضور هذه اللغة وهناك من اعتبرها مكسباً حضارياً لا بد من استغلاله لصالح الهوية الجزائرية وحمايتها، ومن هؤلاء الوزيرة السابقة زهور ونيسي «وتكررت مواقفي الصريحة التي عبرت من خلالها عن وجهة نظري دون خوف مثل حادثة وقعت سنة ١٩٨٦ عندما تكلمت عن قضية الأمازيغية وضرورة حماية الأمازيغية وجعلها ثابتاً من ثوابت الوطنية»[١]، وقد عبرت

---

(١) زهور ونيسي، أنا أول من قال: "كل الجزائريين أمازيغ عربهم الإسلام"، حوار أجرته آسيا شلابي، جريدة الشروق الجزائرية، ٧ فيفري ٢٠١٤.

زهور ونيسي عن إيمانها بهوية الشعب الجزائري عندما قالت عبارتها الشهيرة: «كل الجزائريين أمازيغ عربهم الإسلام، وهذه الكلمة أنا أول من قالها وهذا شرف لي، ثم قالها الكثير من بعدي وهذه هي الحقيقة»[١]، ولم تكن الوزيرة سابقاً والأديبة المعروفة الوحيدة التي دافعت عن هوية الشعب الجزائري الأمازيغية، فقد كان إلى جانبها العديد من المفكرين الجزائريين ومنهم المؤرخ أبو القاسم سعد الله «انظري إلى الطرح الأخير للدكتور أبو قاسم سعد الله رحمه الله في قضية الأمازيغية في الجزائر، هو لا يطرح الموضوع فقط، بل يُطالب بأن يكون إحياء الأمازيغي بالحرف العربي كما كان يفعل أجدادنا سابقاً»[٢]، وكتابة اللغة الأمازيغية بالحرف العربي مطلب ما زال يُطرح لحد الآن.

وتسعى الحكومة الجزائرية منذ انتشار ما أطلق عليه **الربيع العربي** في الكثير من البلدان العربية لشراء ما يُسمى بـ"**السلم الاجتماعي**"، ومن إنجازاتها في هذا المجال اعترافها باللغة الأمازيغية لغة وطنية، والمتتبع لنتائج هذا الاعتراف يقف عند تدريس هذه اللغة في المناطق التي تتكلم بها فقط، وتقوم -ومع نهاية ٢٠١٧- احتجاجات عارمة وانتفاضة شعبية لتعميم اللغة الأمازيغية في كل أرجاء الوطن، لتسفر عن اعتراف آخر هو ترسيم السنة الأمازيغية ويومها الوطني في كل ١٢ جانفي من كل عام. «قرر مجلس الوزراء في اجتماعه الأخير ترسيم تاريخ ١٢ جانفي عطلة وطنية مدفوعة الأجر، وبعث مشروع إنشاء أكاديمية تعليم الأمازيغية في محاولة تهدئة المطالب المتعلقة بالهوية وفي الخلفية حسابات سياسية ترتبط بتهدئة الأوضاع أساساً في منطقة القبائل»[٣]،

---

(١) زهور ونيسي، أنا أول من قال: "كل الجزائريين أمازيغ عربهم الإسلام"، حوار أجرته آسيا شلابي، جريدة الشروق الجزائرية، ٧ فيفري ٢٠١٤.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) ج. فنينش، السلطة تتبنى استراتيجية "استرجاع" المطلب الأمازيغي، جريدة الخبر الجزائرية، ع ٨٧٣٥، السبت ٣٠ ديسمبر ٢٠١٧.

وعلى أساس هذا تعرف الساحة الثقافية اليوم حراكاً شعبياً وأكاديمياً لم تعهده اللغة الأمازيغية من قبل.

ولاحظنا أن دائرة الصراع اللغوي المرتبط بهذه اللغة -ومع الاحتفال بتحقيق مثل هذا المكسب- قد توسعت أكثر لترتبط بتساؤلات عديدة منها: ما هي الأمازيغية التي سوف تدرس للأجيال الصاعدة؟ هل هي أمازيغية منطقة القبائل أم أمازيغية منطقة الشاوية أم أمازيغية بني مزاب أم منطقة الطوارق بالصحراء الكبرى؟ وكيف ستكتب هذه اللغة؟ هل بحروف عربية وهو ما ينادي به علماء ومفكرو الجزائر مثل سعد الله وزهور ونيسي ورئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين حالياً عبدالرزاق قسوم، أم تكتب بحروف التيفناغ وهو ما يراه بعض المنشغلين بالمسألة الأمازيغية؟ أم بحروف فرنسية مثلما يسعى إلى ذلك التيار التغريبي الموالي لفرنسا؟

ولّدت هذه التساؤلات التي طرحناها حالياً تصدعاً وسط الشعب الجزائري؛ منهم من أيد موقف تدريسها ومنهم من رفض ذلك رفضاً قاطعاً معتبراً الأمازيغية لغة مناطق معينة هو لا يمت لها بصلة عاكساً بذلك كرهه الشديد لها، هو الكره الذي غرسه المستدمر الفرنسي سابقاً بين الناطق بالأمازيغية وبين غير الناطق بها، لتظهر للسطح مرة أخرى جدلية أصول جذور الشعب الجزائري التي طرحت وما زالت تطرح، وباعتبار المستدمر -كما أشار إلى ذلك مالك بن نبي- العين الساهرة على الشعوب التي احتلها، فكذلك هي فرنسا التي ظلت منذ الاستقلال إلى يومنا هذا تثير مسألة اللغة الأمازيغية وأصول الشعب الجزائري، وما تأسيس الأكاديمية الأمازيغية بباريس إلا صورة من صور دعم الانقسام والتصدع وسط الشعب الجزائري في قضية الهوية.

**٣- الحلول المقترحة لحل الصراع اللغوي في الجزائر:**

وجب علينا -وعلى ضوء ما سبق تقديمه عن طبيعة الصراع اللغوي في الجزائر وتبعاته الثقافية والاجتماعية- أن نجد حلولاً واقعية بعيدة عن التنظير

الذي امتد لسنوات دون أن يكون له صدًى في الواقع المعيش الذي يحياه الفرد الجزائري، ومن هذه الحلول التي نراها ناجعة لمثل هذا الوضع اللغوي:

١- أن يعتقد الفرد الجزائري اعتقاداً راسخاً بضرورة مسؤوليته الفردية في حماية هويته ومقاومة ثقافة المركز مهما كانت الدول التي تمثل هذه الثقافة، وإذا تحقق ذلك يعني في المقابل دحض نظرية الغالب والمغلوب التي بيّن العلّامة عبدالرحمن بن خلدون تداعياتها الخطيرة «ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبداً بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه بل وفي سائر أحواله»[1]، فالسعي للابتعاد عن تأثير الآخر في مسألة الهوية أمر لا بد من الإيمان به أولاً والوعي بتداعياته ثانياً.

٢- لا يعني الابتعاد عن تأثير الآخر الغربي أن تنعزل الأنا عنه وتنكفئ على نفسها، فحضارة شعب ما ستستمر عندما تُحقق الانفتاح على هذا الآخر، وهذا ما يجب أن تتعلمه الأجيال الصاعدة فتعلم اللغة الأجنبية – إن كانت الفرنسية أو الإنجليزية– تأكيد منها على الرغبة في التطور والتقدم للأمام، وهذا يعني من جهة أخرى تبني السلوك الثقافي الحضاري الذي انتهجته جمعية العلماء المسلمين بقيادة العلامة ابن باديس.

٣- القضاء على ثقافة الفتنة اللغوية التي سعت وتسعى فرنسا لغرسها بالقوة بين أبناء الشعب الجزائري، لتتأكد في المقابل مقولة "كل الجزائريين أمازيغ عربهم الإسلام"، فالالتحام حول الجذور الأمازيغية والروح العربية مسألة يجب أن تبقى قائمة يعيها الكبير والصغير في المجتمع الجزائري المعاصر.

---

(١) عبدالرحمن بن خلدون، المقدمة، دار الكتاب العربي، ط٢، لبنان، ١٩٩٨، ص١٤٦.

٤- تفعيل جمعية العلماء المسلمين لـدورها فـي حمايـة هويـة الشـعب الجزائري، فلا يجب عليها أن تستسلم لحمـلات التيـار الفرنكفـوني التغريبي الذي يسعى للتواصل الدائم مع التبعية لفرنسا، ومن ذلك سعيها لأن تكون طرفاً مهماً في تأسيس معارف الكتاب المدرسي خاصة كتاب اللغة العربية والتربية الإسلامية.

٥- أن يحدث تفاهم ونقاش عميق بين التيار العروبي والفرانكفوني لتأسيس انفتاح لغوي يهدف إلى حلحلة نهائية للصراع اللغوي في الجزائر وإنقاذ هوية الأجيال الصاعدة من دوامة الضياع التي تعيشها والتي عاشـتها الأجيال التي سبقتها.

٦- تثقيف الأجيال الصاعدة على تقدير علمائها ومفكريها وكل من يسـعى للمحافظة على هويتها من خطر العولمة ومركزية القـوي حضـارياً، فعندما تتحقق هذه الغاية ستُمكن هذه الأجيال الجزائر من استعادة مكانتها القوية التي كانتها ذات وقت «واعلم أن من خلال الكمال التي يتنـافس فيها القبائل أولو العصبية وتكون شاهدة لهم بالملـك إكـرام العلمـاء والصالحين والأشراف وأهل الأحساب وإنزال الناس منازلهم»[1]، ولا يمكننا إنكار والجزائر تعيش استمرارية الصراع اللغـوي أن الأجيـال الصاعدة فيها من يحترم كل من يسعى لحماية الهوية الوطنية وإبعادها من مخاطر استراتيجية مسطرة بإحكام.

---

(١) المقدمة، ص١٤٣.

**خاتمة:**

لا يمكننا اليوم تجاوز مسألة الهوية لأنها مشروع حضاري مهم وخطير في الوقت نفسه، فثبات هذا المشروع يعني ثبات الأمة واستمرارها، وتعرضه لأي تهديد يعني سعي الأمة لهلاكها، وإدراك الاستدمار الفرنسي لمفهوم الهوية وقيمتها ساعده على تطبيق استراتيجية محكمة جداً في الجزائر، ويمكن الحكم عليها أنها تأرجحت بين النجاح والفشل، فما انتشار الأمية بين أوساط الشعب الجزائري والتفاف مثقفيه حول ثقافة هذا المستدمر ثقافة ولغة بل وتدين البعض بالدين المسيحي إلا مؤشرات حققت جانباً من نجاح استراتيجية فرنسا الثقافية في الجزائر، لكن مؤشرات فشل هذه الاستراتيجية أيضاً قائمة؛ وهي متمثلة في ظهور القوة الثقافية المضادة كما سميناها وهي مقاومة الأمير عبدالقادر التربوية أولاً، وثانياً جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي سعت بأعلامها وطلابها وبعثاتها للبلدان المجاورة والبلدان المشرقية إلى حماية مقومات الشعب الجزائري للتشبع من الدين واللغة تشبعاً كبيراً، بل وكان للمدارس العربية التي أنشأتها الجمعية دورها الريادي في تأسيس شخصية طلابها الذين ناضلوا من أجل المحافظة على هوية هذا الشعب، ولنا في الوزيرة المثقفة زهور ونيسي خير مثال.

وإيمان المستدمر بمركزيته المطلقة جعلته يتواصل معها ويؤكدها حتى بعد استقلال الشعوب التي احتلها، وهكذا كانت فرنسا بعد خروجها الإجباري من الجزائر؛ فقد ظلت حريصة على إبقاء الصراع اللغوي في هذا البلد ساعية لتهميش مجهودات الحكومات المتواصلة في إخراج الجزائر من دائرة الصراع هذه، فهي تشجع على الدوام التيار الفرانكفوني الذي نجح في إبعاد التيار العروبي وتهميش دوره إلى حد بعيد. وانجذاب الأجيال الصاعدة للغة الآخر

الفرنسي وثقافته دليل آخر يصفع وبقوة أي مجهود لإنقاذ هذه الأجيال من دوامة الصراع اللغوي، فالتماهي مع هذا الآخر -كما هو ملاحظ- تزداد وتيرته وتتسارع؛ ما يعرض هذه الأجيال لحالة من ضياع هوياتي متصاعد.

ويمكن الجزم بأن التيار التغريبي مؤثر بشكل قوي في الحياة الثقافية والسياسية للشعب الجزائري للمساندة القوية التي يتلقاها هذا التيار على الدوام من قبل فرنسا، مقابل هشاشة التيار العروبي الذي لا يجد مؤيداً له سوى جهود أبنائه وهو سند داخلي ضئيل مقابل السند الذي يتوكل عليه التيار التغريبي، ومهما كان فلا بد من أن يُفعّل التيار العروبي وجوده قبل أن تنفلت الأمور أكثر وتضيع الهوية التي سعى علماؤنا ومفكرونا للمحافظة عليها.

## قائمة المصادر والمراجع:

**الكتب:**


١- أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، نشأته وتطوره وقضـــاياه، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ٢٠٠٧.

٢- تيري هنتش، الشرق الخيالي ورؤية الآخر، ترجمة مي عبدالكريم محمود، دار مدى للثقافة والنشر، لبنان، ط١، ٢٠٠٦.

٣- حنا الفاخوري، تاريخ الأدب العربي في المغرب، المكتبة البوليسية، لبنان، دار الأصالة، الجزائر، ط١، ١٩٨٢.

٤- صحبي حسان، العقيدة التربوية الاستعمارية الفرنسية في الجزائر ١٨٣٠، ١٩٦٢، منشورات أنوار المعرفة، الجزائر، ٢٠١٤.

٥- عبدالرحمن بن خلدون، المقدمة، دار الكتاب العربي، لبنان، ط٢، ١٩٩٨.

٦- عبدالقادر فضيل، المدرسة في الجزائر، حقائق وإشـــكالات، دار جســـور للنشر والتوزيع، الجزائر، ط٢، ٢٠١٣.

٧- علي محمد محمد الصلابي، كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، دار العزة والكرامة للكتاب، لبنان، ط١، ٢٠١٦.

٨- مالك بن نبي، في مهب الريح، دار الفكر، سوريا، ط١١، ٢٠١٥.

٩- مالك بن نبي، من أجل التغيير، دار الفكر، سوربا، ط٩، ٢٠١٥.

١٠- محمد الميلي، ابن باديس وعروبة الجزائر، دار الكتاب العربي، الجزائر، ٢٠١١.

١١- محمد ناصر، الصحف العربية الجزائرية من ١٨٤٧ إلـــى ١٩٥٤، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط٣، ٢٠٠٧.

١٢- آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٩٧، لبنان.

**المجلات والجرائد:**


١- إبراهيم سعدي، الثقافة والهوية والدولة، من الكتاب الجماعي "السؤال عن الهوية في التأسيس والنقد والمستقبل"، منشورات ضفاف، لبنان، منشورات الاختلاف، الجزائر، ٢٠١٦.

٢- الطيب بن إبراهيم، مولود قاسم عرّاب التعريب في الجزائر، جريدة أخبار اليوم الجزائرية، الثلاثاء ٢٩ أوت ٢٠١٧.

٣- أم السعد مكي، الرئيس هواري بومدين ألقى ٤٠٠ خطاب لترسيخ الوحدة الوطنية، الطبعة التاسعة للملتقى الوطني حول الراحل هواري بومدين، قالمة، الجزائر، جريدة الخبر الجزائرية، ع٨٧٣٥ السبت ٣٠ ديسمبر ٢٠١٧.

٤- ج. فنينش، السلطة تتبنى استرجاع المطلب الأمازيغي، جريدة الخبر الجزائرية، ع٨٧٣٥، ٣٠ ديسمبر ٢٠١٧.

٥- حوار مع مالك حداد أجراه أبو العيد دودو، مجلة البيان، الكويت، ع٣١٨، يناير ١٩٩٧.

٦- زهور ونيسي، أنا أول من قال "كل الجزائريين أمازيغ عربهم الإسلام" حوار أجرته آسيا شلابي، جريدة الشروق الجزائرية، ٧ فيفري ٢٠١٤.

٧- عبدالحميد بن باديس، جريدة البصائر، ع١٣٦، ٢١ أكتوبر١٩٣٨، نقلاً عن كتاب محمد الميلي، ابن باديس وعروبة الجزائر.

٨- عبدالحميد بن باديس، جريدة الشهاب، ٥ جانفي ١٩٣٨، نقلاً عن كتاب محمد الميلي، ابن باديس وعروبة الجزائر.

٩- عز الدين صحراوي، اللغة العربية في الجزائر التاريخ والهوية، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة بسكرة، ع٥، جوان ٢٠٠٩.
١٠- مصطفى علي جوزو، لغتنا العربية بين الهوية القومية والتنكر لها، مجلة العربي، الكويت، ع٧٠٩، ديسمبر ٢٠١٧.
١١- محمد مجوط، فلسفة ابن باديس التربوية بين الخصوصية الثقافية وعالمية القيم الإنسانية، مجلة الحكمة، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، ع١٧، ٢٠١٣.
١٢- نصيرة زيتوني، واقع اللغة العربية في زائر، مجلة جامعة النجاح، مج٢٧، ٢٠١٣.